جناية الرواة على الشعر

Les rapsodes criminels.

بقلم الاديب الناقد البصير الاستاذ عبد القادر عاشور من كبار اساتذة الاسكندرية بمصر

اذا كان الشعر عند الغربيين مظهرا من مظاهر الصراع بين الحق والباطل فانه عند العرب أعم وأوسع ، إلّا ان الذكر الحكيم كفى شعراء العربية مؤونة التعرض لكثير من الاغراض كاخبار الاولين والحث على اتباع ما كمل من العادة والاخلاق ،وكأن الشعراء عند ما بهرتهم بلاغة القرآن سقطوا في ايديهم ونسوا الحرية والصراحة اللتين هما أساس نمو الشاعرية وتلهب الوجدان ، وأجبل منهم من أجبل ، حتى ان لبيد بن ربيعة هجر الشعر ولم يرو له في الاسلام غير بيت واحد ، وهو — على بعض الروايات :

ما عاتب الحر الكريم كنفسه والمرء يصلحه الجليس الصالح

وكان اذا سئل عما قال من الشعر بعد الاسلام يتلو بعض آيات من القرآن! وأيقن كثير من الشعراء بعد ذلك أنهم لن يتمكنوا من الظهور كشعراء إلّا بعد أن يتخذوا لهم اماما من شعر السابقين يحتجون به اذا اعترضهم معترض ومن شذ منهم عن هذه القاعدة وركب متن الحرية سلم من التقليد وقصر العاطفة وجاء شعره كله ابداعا في ابداع كابن ربيعة وابن اذينة والعرجي .

وفي بدء عصر بني أمية ظهر الرواة الذين أفسدوا الشعر وانتحلوه وأجبروا الشعراء على ارتكاب ما سود صحيفته ونزل به الى الحضيض وأملوا عليهم رغباتهم واضطروهم الى الشطط في الصناعة والتكلف واصطياد الغريب والحوشي ومكانتهم السامية لدى الملوك والامراء وكلمتهم النافذة في الحكم على الشعراء أخذت بلب كثير من محترفي الشعر فأصبحوا ولا هم لهم غير ارضاء الرواة والتزلف اليهم او معارضتهم والظهور عليهم كما كان يفعل الطرماح بن حكيم فانه كان يسأل الاعراب عن الغريب ويضعه في شعره ليتحدى به علماء الشعر ونقدته وبهذا سمت منزلته عندهم حتى أن أبا عبيدة والاصمعي فضلاه على غيره من الشعراء وزعما انه أشعر الخلق في بيته :

مجتاب حلة برجد لسراته قدوا واخلف ما سواه البرجد
يبدو وتضمره البلاد كأنه سيف على شرف يسيل ويغمد

وكنا يعلم ان في هذا الاستحسان من الخطل ما فيه ! غير اننا بازاء هذا الاختيار نعذر الشعراء ونضع اللوم كله على عاتق ما نصبوا انفسهم للتقدير والحكم وكيف لا نلوم الاصمعي على استحسانه الاستحسان كله قصيدة المرقش :

هل بالديار أن تجيب صمم لو أن حيا ناطقا كلم

مع انك لو جست خلالها لوجدتها معقدة اللفظ رديئة السبك خاملة الخيال مختلة الوزن ؟!! ولا ادري كيف استحسن قول الشاعر :

ولو ارسلت من حبـ ـك مهبوتا من الصين
لوافيتك قبل الصبـ ـح او حين تصابين ؟!

ومن الرواة من كان يستحسن الفج الغليظ من الشعر ويستملح ما كان على شاكلة قول ذي الرمة :

رمتني مي بالهوى رمي معضغ من الوحش لوط لم تعقد الأوالس
بعينين نجلاوين لم يجر فيهما ضمان وجيد حلي الدر شامس

ولم يحفل بشعر ابن ابي ربيعة وقصيدته التي ابتدأها بقوله :

أمن آل نعم انت غاد فمبكر غداة غد أم رائح فمهجر

على ما فيها من ابداع وطول نفس ! وانها لتحمل قارئها على السير فيها بشوق ولذة . ولما سمع المخزومي قول عروة بن اذينة :

ولهن بالبيت العتيق لبانة والبيت يعرفهن لو يتكلم !
لو كان حيا قبلهن ظمائنا حيا الحطيم وجوههن وزمزم !

الى آخر الابيات قال: انه اهجر واخطل !! ويعلم الله اي الرجلين اهجر واخطل ... وزعم المتنبي ان قول جرير :

ان العيون التي في طرفها حور قتلتنا ثم لم يحيين قتلانا !
يصرعن ذا اللب حتى لا حراك به وهن اضعف خلق الله اركانا!

ليس له كبير معنى !.. مع ان معناه ـ كما قال ابو هلال العسكري ـ غاية الحسن والجودة .

ولما شاهد الرواة روح التجديد تكتسح القديم وتطرده من ربوعها قابلوا ذلك بازدراء الحديث وانكار فضله ، وبالتشهير بكل من يعرفون فيه بعض التمرد على القديم ، من ذلك ان ابن الاعرابي كان يأمر ان يكتب جميع ما يجري في مجلسه فانشده رجل يوما ارجوزة ابي تمام في وصف السحاب على انها لبعض العرب :

ساريةٍ لم تكتحل بغمض كدراء ذات هطلان محض
موقرة من خلة وحمض تمضي وتبقي نعما لا تمضي
قضت بها السماء حق الارض

فقال ابن الاعرابي : اكتبوها ! فلما كتبوها قيل له انها لحبيب بن اوس فقال: خرق خرق لاجرم ان اثر الصنعة فيها بين !! فأنت ترى ان أبا تمام أغرب فيها الاغراب كله وتتبع آثار من سلفوا من الرجاز كابي النجم ورؤبة حتى اشكلت على ابن الاعرابي ولكن ذلك كله لم يشفع له بل خرقت تخريقا !! لا لان أثر الصنعة فيها بين بل لانها شعر حديث ! ومن اين يأكل ابن الاعرابي وامثاله اذا حل الحديث محل القديم ؟! على ان كثيرا من الشعراء اشتد حرصهم على ارضاء الرواة وتغالوا في ان يكون لكل بيت من قصيدهم معنى يستقل به عن سابقه ولاحقه مع تحميل بعضها ما لا يطاق من لفظ غريب وقواعد شاذة ليسير سير المثل وليتداوله الرواة في مجالسهم وعلماء النحو والغريب في حلقات الدرس !! وكان الفرزدق شيخ الشعراء الذين نحوا هذا المنحى واتبعوا هذه الطريقة شهد له بذلك ابن سلام في قوله : « كان الفرزدق اكثرهم بيتا مقلدا » والمقلد البيت المستغني بنفسه المشهور وذلك كقوله :

ولو خير السيدي بين غواية ورشد اتى السيدي ما كان غاويا

ومن الذي كان يعجب النحويين هذا البيت :

وما مثله في الناس إلا مملكا ابو امه حي أبوه يقاربه !

وكذلك: الستم عائجين بنا لعنا ترى العرصات او اثر الخيام؟

فقالوا : إن فعلت فاغن عنا دموعا غير راقئة السجام

هذه الاشياء كلها مجتمعة جوزت للشعراء ما لا يجوز واباحت لهم الانتحال والسرقة والغصب وحصرت الشعر في دائرة ضيقة ! وكم من شعر نسب الى

غير شاعره وشعراء لم يأنفوا من اغتصاب ثمرة مجهود غيرهم ! وها هو ذا الفرزدق يغتصب قول جميل :

ترى الناس ماسرنا يسيرون خلفنا وإننحن اومأنا الى الناس وقفوا!

وجرير ينتحل قول المملوط السعدي :

ان الذين غدوا بلبك غادروا وشلا بعينك لا يزال معينا !

غيضن من عبراتهن وقلن لي ماذا لقيت من الهوى ولقينا ?!

وينتحل ايضا قول طفيل الغنوي :

ولما التقى الجمعان القيت العصا ومات الهوى لما اصيبت مقاتله !

وكان ابو نواس يبني اكثر شعره على معاني غيره : يدل على ذلك ما جاء في (الاغاني) من ان اسحق الموصلي انشد شعرا لابي الهندي في صفة الخمر فاستحسنه وقرظه فذكر عنده ابو نواس فقال : ومن اين اخذ ابو نواس معانيه إلا من هذه الطبقة وجعل ينشد بيتا بيتا من شعر ابي الهندي ثم يستخرج المعنى والموضع الذي سرق الحسن فيه حتى اتى على الابيات كلها واستخرجها من شعره . وذكر صاحب (الاغاني) ايضا ان قول ابي نواس : « وداوني بالتي كانت هي الداء » ماخوذ من قول الاعشى : « واخرى تداويت منها بها » وان قوله : « إن الشباب مطية الجهل » مأخوذ من قول النابغة الجعدي : « فان مطية الجهل الشباب » ولكنه ابو نواس شاعر الخلفاء والمشهود له بالفضل بين جمهرة العلماء ...!! وهكذا ظلت هذه العيوب لاصقة بالشعر حتى يومنا هذا ولم يجرؤ احد من شعراء نهضتنا الحالية على مناوأتها والقضاء عليها غير نفر قليل وعندما حبب الى (امير الشعراء) شوقي التجديد نهاه عن ذلك « آفة اللغة الجامدون » واغروه بأماني اسرت لبه وصادفت هوى في نفسه فرجع الى القديم من الشعر يتوكأ عليه ويحتذيه والى الغريب من اللفظ يفسد به شعره والى الحكم المعادة والامثال البائدة « يحشرها » في كل قصيدة من قصائده ليكون حافظ اللغة وحجتها ولو علم لترك شاعريته تنمو وبيانه ينطق بما يعتقد ولم يسمع لهؤلاء الذين اخمدوا قريحته وحادوا به عن الجادة ولكن ما الحيلة والله لم يرد إلا ان يكون كذلك?!